

مجالس الوعاظ والقصاص عبر التاريخ □□ تأثير واسع الجذب للدخول في الإسلام وتوبة العصاة



الأربعاء 16 سبتمبر 2026 01:30 م

حضر مئات الآلاف مجالس الوعاظ والقصاص في عصور مختلفة من التاريخ الإسلامي، ولم تقتصر هذه المجالس على التذكير والموعظة، بل تحولت في بعض الفترات إلى ساحات للتأثير السياسي والمذهبي، كما وجد بعض الوعاظ فيها وسيلة لتحقيق الشهرة والثراء □

ويروي الرحالة الأندلسي ابن جبير الكناني، الذي توفي سنة 614هـ/1217م، مشاهد لافتة من مجالس الوعظ التي حضرها بنفسه في بغداد سنة 580هـ/1184م، ومن بينها مجلس الإمام أبي الخير القزويني الشافعي، الذي توفي سنة 590هـ/1194م، في المدرسة النظامية □

ويصف ابن جبير أجواء المجلس، فيذكر أن القراء كانوا يجلسون أمام الشيخ على كراسٍ معدة لهم، ثم يقرؤون القرآن بألحان ونغمات مؤثرة، قبل أن يصعد الواعظ المنبر ويلقي خطبته في هدوء ووقار، متنقلا بين موضوعات مختلفة من العلوم □

وفي مجلس آخر للإمام ابن الجوزي الحنبلي، المتوفى سنة 597هـ/1201م، وصف ابن جبير أكثر من عشرين قارئاً يفتتحون المجلس بتلاوة القرآن، بحيث تتناوب مجموعات صغيرة منهم قراءة آيات مختلفة، قبل أن يبدأ ابن الجوزي موعظته بأسلوب شديد التأثير □

وتكشف هذه المشاهد أن مجالس الوعظ لم تكن مجرد تجمعات عفوية، بل كانت في بعض الحالات تعتمد على إعداد دقيق وتوزيع للأدوار واستخدام وسائل متعددة للتأثير في الجمهور، بهدف تحريك مشاعر التوبة والخشوع واستحضار صور الآخرة □

بدايات ظاهرة الوعظ

تمثل ظاهرة القصص والوعاظ واحدة من التحولات الاجتماعية اللافتة في التاريخ الإسلامي، إذ لم تكن هذه الفئة موجودة بهذا الشكل في عهد النبي □ ولا خلال فترة أبي بكر الصديق، وجزء من خلافة عمر بن الخطاب، قبل أن تبدأ في الانتشار بصورة تدريجية □

وتشير الروايات التاريخية إلى أن الصحابي تميم بن أوس الداري كان أول من حصل على إذن بالقصص في عهد عمر، بعدما طلب منه ذلك أكثر من مرة □

وذكر الإمام الذهبي أن تميم كان يقرأ القرآن ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأذن له عمر بالوعظ قبل صلاة الجمعة، ثم زاد عثمان بن عفان عدد أيام مواعيده □

ومع مرور الوقت، بدأ هذا النشاط يحتاج إلى مزيد من التنظيم والرقابة □ ويروي ابن الجوزي أن علي بن أبي طالب منع أحد القصاص من الوعظ في مسجد الكوفة لأنه لم يكن يعرف الناسخ والمنسوخ، وهو ما يعكس مبكراً اهتمام العلماء بضبط الخطاب الذي يقدم للجمهور □

ومع قيام الدولة الأموية، اكتشفت السلطة مبكراً القيمة السياسية لمجالس القصص والوعظ، فدخل بعض الوعاظ في دائرة التوظيف السياسي، سواء للترويج للحكام أو لإظهار مناقبهم أو مهاجمة خصومهم □

الوعظ في خدمة السياسة

ارتبط القص السياسي بالدولة الأموية، ثم استمر وتوسع في العصر العباسي، فظهر وعاظ يركزون على الزهد والتزكية، إلى جانب آخرين استخدموا خطابهم لخدمة الملوك والسلاطين

وكان تأثير هؤلاء كبيرا بسبب قربهم من عامة الناس وقدرتهم على مخاطبة الجمهور بلغة يفهمها ويتفاعل معها ومن هنا أصبح الواعظ أحيانا وسيلة لتحسين صورة السلطة، أو توجيه الرأي العام ضد خصوم سياسيين أو مذهبيين

كما ظهرت أجهزة دعوية مرتبطة ببعض التيارات الباطنية، وكان الدعاة يعملون على الوصول إلى الجماهير ونشر الأفكار الإسماعيلية، وهو ما جعل الوعظ والدعوة جزءا من صراع سياسي وفكري أوسع

ومع ذلك، لم يكن جميع الوعاظ أدوات في يد السلطة، فقد ظهر بينهم زهاد وعلماء واجهوا الحكام بالنصيحة والإنكار، وسجلت كتب التراجم مواقف كثيرة لوعاظ وقفوا في مواجهة السلطين حين رأوا انحرافا أو ظلما

الدعاية المذهبية

لم يتوقف استخدام مجالس الوعظ عند السياسة، إذ تحولت أحيانا إلى وسيلة لنشر المذاهب الفقهية والعقائدية والدفاع عنها، وهو ما أدى في بعض المدن إلى صراعات وفتن بين أتباع المذاهب المختلفة

ومن أبرز الأمثلة ما وقع مع أبي نصر القشيري، الذي عقد مجالس للوعظ في بغداد وظهر له قبول واسع، لكنه أعلن موقفه من المذهب الأشعري، فاشتدت المواجهة بينه وبين الحنابلة، ووصل الأمر إلى وقوع اضطرابات بين العامة

وتكرر الأمر مع وعاظ آخرين، إذ أدت المنافسة المذهبية إلى اشتباكات ومشاحنات، حتى تدخلت السلطات في أحيان كثيرة لمنع بعض المجالس أو تقييد مضمونها

وفي بغداد، شهدت سنة 389هـ/1000م فتنة بين السنة والشيعة، ففُنع القصاص من الوعظ مؤقتا، ثم سُمح لهم بالعودة بشرط الابتعاد عن الموضوعات التي يمكن أن تؤدي إلى إثارة الفتنة

وبعد فتنة ابن القشيري والحنابلة، فُنع الوعاظ في بغداد فترة من الزمن، قبل أن تعود مجالسهم مع فرض قيود واضحة عليهم، من بينها عدم الخوض في مسائل العقائد والمذاهب التي يمكن أن تشعل الخلافات

جمهور يبحث عما يريد

لم يكن الواعظ دائما مستقلا عن رغبات جمهوره، فقد أدرك بعضهم أن استمرار الإقبال على مجالسه يرتبط بقدرته على تقديم ما يستهوي المستمعين، حتى لو تضمن ذلك روايات ضعيفة أو مبالغات

وانتقد ابن الجوزي هذا النوع من الوعاظ بشدة، مشيرا إلى أن كثيرا من القصاص كانوا يفتقرون إلى معرفة الحديث الصحيح، ولذلك يختارون القصص والروايات التي تلقى قبولا لدى العامة، بغض النظر عن صحتها

وتكشف بعض الروايات كذلك عن قدرة الواعظ على تغيير أسلوبه بحسب طبيعة الجمهور أو الشخصيات الموجودة أمامه ومن ذلك ما رواه البخارزي عن القاضي أبي منصور السمعاني، حين قال له بعد أن عرف بحضوره مجلسه: لو علمت بحضورك لحبرت المجلس تحبيرا

وهذه العبارة تكشف إدراك الوعاظ لأهمية معرفة الجمهور والاستعداد له، وهي سمة ستصبح أكثر وضوحا كلما اتسعت جماهيرية مجالس الوعظ

مجالس بالمئات والآلاف

تشير كتب التراجم والتاريخ إلى أن الوعاظ استطاعوا جذب أعداد ضخمة من الناس، حتى أصبحت بعض المجالس حدثا جماهيريا كبيرا

فقد ذكر عن الواعظ رزق الله التميمي الحنبلي أن أعدادا كبيرة كانت تجتمع لسماع كلامه، كما وصف الذهبي مجالس عدد من الوعاظ بأنها كانت تضم خلقا عظيما من العامة والخاصة

ولم يكن الإقبال مقتصرا على الفقراء أو العامة، بل كان الأمراء والعلماء والأدباء وأصحاب النفوذ يحضرون مجالس كبار الوعاظ، وهو ما منح بعضهم نفوذا اجتماعيا واسعا

ومن الوعاظ الذين حظوا بهذه المكانة أبو الخير القزويني، الذي جذب مجلسه عامة الناس ووجوه الدولة، حتى أصبح باب بدر في دار الخلافة أحد الأماكن المرتبطة بمجالس الوعظ الرسمية

أرقام ضخمة للحضور

اهتم مؤرخو تلك العصور بتسجيل أعداد الحاضرين أحيانا، وتكشف بعض الروايات عن أرقام هائلة

فقد نقل عن الواعظ أبي الحسين أزدشير العبادي أن مجلسه كان يحضره نحو ثلاثين ألفا من الرجال والنساء، بينما ذكر عبد القادر الجيلاني أن عدد الحاضرين في مجالسه ارتفع مع الوقت حتى بلغ نحو سبعين ألفا

لكن الإمام ابن الجوزي ظل واحدا من أبرز النماذج التي ارتبط اسمها بالأعداد الضخمة في مجالس الوعظ

ويذكر ابن الجوزي أنه بدأ الوعظ وهو في العاشرة من عمره، وأن جمعا بلغ نحو خمسين ألفا حضروا مجلسه الأول وبعد ذلك اتسعت شهرته، وأصبحت مجالسه تجذب الآلاف بصورة منتظمة

ويقول إنه كان يقدر عدد الحاضرين في بعض مجالسه بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا، بينما شهدت مجالس أخرى أعدادا أكبر بكثير

وفي أحد مجالسه بجامع المنصور يوم عاشوراء، ذكر أن الحاضرين بلغوا نحو مئة ألف، كما وصف في مناسبة أخرى تجمعات ضخمة حول مجلسه جعلته يقدر عدد الخارجين لحضوره بمئات الآلاف

عروض وعظية شديدة التأثير

لم تكن الضخامة العددية وحدها هي الالفة في مجالس الوعظ، بل كانت طريقة تقديم الموعظة نفسها جزءا من أسباب نجاحها

فابن جبير وصف مجلس ابن الجوزي بدقة، مشيرا إلى مشاركة أكثر من عشرين قارنا في افتتاحه، وتناوبهم على تلاوة آيات من القرآن، ثم انتقل ابن الجوزي إلى الخطبة وربط الآيات التي قُرئت بموضوع الموعظة

وتكشف هذه الصورة عن اهتمام كبير بالتنظيم والإيقاع والأداء، وهي عناصر ساعدت الواعظ على إبقاء الجمهور في حالة تركيز وتأثر

وكانت مجالس بعض الوعاظ تبدأ بعد ساعات من تجمع الناس، حتى إن بعض الحاضرين كانوا يحجزون أماكنهم منذ الصباح للاستماع إلى الموعظة في فترة العصر

مواعظ تدفع إلى التوبة

بلغ تأثير بعض الوعاظ في جمهورهم درجة كبيرة، حتى تحدثت المصادر عن إسلام أشخاص على أيديهم، وتوبة أعداد كبيرة من العصاة

ويذكر عبد القادر الجيلاني أن أكثر من خمسمئة شخص أسلموا على يده، وأن أعدادا ضخمة من اللصوص والعصاة تابوا بسبب مجالسه

كما تذكر المصادر تأثير بعض الوعاظ في غير المسلمين، ومنهم من دخل الإسلام بعد حضور مجلس واحد

وكان من مظاهر التوبة في بعض المجالس حلق الشعر، وهو ما يصفه ابن جبير في حديثه عن مجالس ابن الجوزي، حين كان بعض التائبين يقطعون شعرهم أمام الواعظ، بينما يصاب آخرون بالإغماء من شدة التأثير

ولم تكن هذه المشاهد مقتصورة على ابن الجوزي، فقد وصف ابن جبير كذلك تأثير مواعظ القزويني في الحاضرين، وما كانت تثيره من بكاء وخشوع وتوبة

حين يصل التأثير إلى الموت

تروي كتب التاريخ حوادث أكثر غرابة، إذ تشير بعض الروايات إلى وفاة أشخاص أثناء مجالس الوعظ من شدة التأثير والانفعال

ويذكر المقرئ أن موت بعض الناس في مجالس الوعظ كان أمرا معروفا في كتب الأخبار، كما تذكر مصادر أخرى حوادث مشابهة ارتبطت بمجالس كبار المتصوفة والوعاظ

وهذه الروايات، بصرف النظر عن مدى دقة كل حالة منها، تكشف عن القوة النفسية التي كانت تنسب إلى مجالس الوعظ في المخيال التاريخي، ومدى تأثير الخطاب الديني في جمهور تلك العصور

مواعيد منتظمة للوعظ

لم تكن مجالس الوعظ تقام بصورة عشوائية، بل ارتبط كثير منها بأيام وأوقات محددة، حتى أصبح مصطلح "المواعيد" أو "الميعاد" مستخدماً للإشارة إلى هذه المجالس

وكان يوم الجمعة من أكثر الأيام ملائمة للوعظ، بينما اختار بعض الوعاظ أيام السبت أو غيرها، بحسب طبيعة الجمهور والمدينة

وكان بعض الناس ينتظرون موعد المجلس منذ الليلة السابقة، كما حدث في دمشق مع سبط ابن الجوزي، حيث كان الناس يبيتون في الجامع حتى يسمعون موعظته صباح السبت

كما اهتم بعض الوعاظ بالإعداد المسبق لموادهم، فكانوا يكتبون الموعظة ثم يراجعونها ويحفظونها قبل تقديمها أمام الجمهور

وتشير بعض الروايات إلى وجود عائلات تخصصت في الخطابة والوعظ، وتدرّب أبناءها منذ الصغر، حتى أصبح وصف "بيت وعظ" أو "بيت خطابة" مرتبطاً ببعض الأسر

حضور النساء في الوعظ

لم تكن مجالس الوعظ حكراً على الرجال، فقد عرفت المصادر التاريخية عدداً من النساء اللاتي اشتهرن بالوعظ والتدريس، وحملن لقب "الواعظة".

ومن أبرزهن فاطمة بنت عباس البغدادية، التي عرفت بالواعظة، وكانت تصعد المنبر وتعظ النساء، وذاع صيتها في دمشق ثم مصر

كما عرفت بعض المدن واعظات أخريات كان لهن حضور في المناسبات العامة، وشاركن في إلقاء الخطب والمواظ

وتكشف هذه النماذج عن وجود مساحة للمرأة في النشاط الوعظي، وإن كان ذلك في أطر اجتماعية وتنظيمية مختلفة بحسب المكان والعصر

الوعظ طريقاً إلى المال

رغم أن الرسالة الأصلية للوعظ تقوم على التذكير بالآخرة والزهد في الدنيا، فإن بعض الوعاظ حولوا مهنتهم إلى وسيلة لتحقيق المكاسب

وتنقل كتب التراجم أخباراً عن وعاظ جمعوا ثروات كبيرة من مجالسهم وعلاقاتهم بالحكام والأمراء

ومن ذلك ما ذكره الذهبي عن ابن نجية الأنصاري، الذي امتلك أموالاً كثيرة وعاش حياة شديدة الرفاهية، قبل أن يموت فقيراً

كما تحدثت المصادر عن وعاظ آخرين اشتهروا بالثراء نتيجة نشاطهم في الوعظ، أو عاشوا من عائدات المجالس والهبات التي يحصلون عليها من الجمهور وأصحاب النفوذ

ولم يقتصر الأمر على الوعاظ نفسه، إذ تشير بعض الروايات إلى حصول مساعديه وقراء المجالس على أموال أيضاً

الرقابة على الوعاظ

مع اتساع ظاهرة الوعظ وظهور بعض التجاوزات، برزت الحاجة إلى الرقابة عليها، سواء من العلماء أو المحتسبين أو السلطات

وانتقد ابن الجوزي بعض الممارسات التي كانت تقع في مجالس الوعظ، خصوصاً استخدام الألحان المؤثرة بصورة تتحول إلى ما يشبه الغناء، أو بعض التصرفات التي اعتبرها بعيدة عن المقصود الشرعي من الموعظة

ولهذا خصصت كتب الحسبة أبواباً لمراقبة الوعاظ ومجالسهم، ووضعت شروطاً لمن يتولى هذه المهمة

وكان المحتسب يتدخل لمنع بعض الممارسات، كما كان يراقب طبيعة الحضور وتنظيم المجالس، وفي بعض المدن فُرضت قيود على الاختلاط بين الرجال والنساء أثناء المجالس

ويشير هذا كله إلى أن الوعظ كان مؤسسة اجتماعية واسعة التأثير، ولم يكن نشاطاً فردياً محدوداً، ولذلك كان من الطبيعي أن يخضع بدرجات متفاوتة للرقابة والتنظيم

بين تزكية القلوب وجمع المال

تكشف مسيرة الوعاظ والقصاص في التاريخ الإسلامي عن ظاهرة شديدة التعقيد؛ فقد كان الوعظ وسيلة فعالة لنشر القيم الدينية والتذكير بالآخرة وإصلاح السلوك، واستطاع عدد من الوعاظ التأثير في أعداد هائلة من الناس

لكن الوجه الآخر للظاهرة تمثل في استغلال بعض الوعاظ لمكانتهم من أجل خدمة السلطة أو نشر التعصب المذهبي أو تحقيق الشهرة والثراء

ولهذا ظل الصراع قائما بين نموذج الواعظ الذي يرى مهمته في إصلاح الناس ونصح الحكام، وبين نموذج آخر تعامل مع الوعظ باعتباره صناعة تقوم على الجمهور والمال والنفوذ

وتبقى قصص مجالس الوعظ القديمة شاهدة على مدى قوة الكلمة في تشكيل وعي المجتمعات، وعلى أن المنبر لم يكن مجرد مكان لإلقاء المواعظ، بل كان في كثير من الأحيان مساحة للصراع الفكري والسياسي والاجتماعي، بين من سعى إلى تزكية القلوب ومن جعل من الوعظ طريقا إلى النفوذ والمال